الغايات الكبرى للحركة الإصلاحية الباديسية بالجزائر في ظَل الاستعمار الفرنسي (1931م/1956م)

معيوش براهيم

دكتوراه- جامعة سطيف2 (محمد لمين دباغين)

ملخص:

تعد الجزائر من بين البلدان التي تتسم بموروث ثقافي مُتميز جدا في التاريخ كونها تعايشت مع ثقافات متعددة أثرت عليها بشكل بارز ، لكن بعد سقوطها تحت براثن الاستعمار الفرنسي عرَضها هذا الأخير إلى مؤامرات مدروسة أفرزت عن تزايد مظاهر الاختراق الثقافي كمُؤشر لا يدفع إلا للتشاؤُم من مُستقبل البلاد، فأصبح الواقع حينذاك يُصارح الجزائريين بضرورة الدعوة إلى الإصلاح وإعادة تغذية الحياة الفكرية والثقافية فيها بمعناهما الواسع.

الكلمات المفتاحية: الحركة الباديسية، مشروع الإصلاح، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

Résumé :

L’Algérie est considérée comme étant un pays qui a un patrimoine culturel riche et varié grâce à la coexistence de nombreuses cultures qui l’ont fortement influencée. Cependant, le colonialisme français a fait en sorte que ce pays soit détérioré sur divers plans à l’instar de plan culturel. Au fil du temps, la culture algérienne s’est métamorphosée à cause des plans élaborés par l’administration coloniale. Cela fait que la majorité des Algériens vivent dans un certain pessimisme. Cette réalité nous met devant la nécessité d’une réforme culturelle au sens large du terme.

مقدمة:

بعد أنْ حلَ الفرنسيون بالجزائر عاش مجتمعها عهدا تقهقريا أناخ على البلاد ردحا طويلا من الزمن، فبالإضافة إلى الطغيان الذي إنحرفت به الإدارة الاستعمارية عن خط الوجود وخير الإنسانية حاولت نقل أنموذجها الحضاري إلى الجزائر بغية تحضيرها للإنصهار في الثقافة الغربية بكل مكوناتها، لكن مع مطلع ثلاثينيات القرن الماضي حصلت وحدة صف ثُلَة من علماء الجزائر بدت عليهم بوادر النُضج الفكري المُبشَر بالأفاق الجديدة فأسسوا جمعية ذات مبادئ إسلامية وتوجه

وطني مُهيكل أسموها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ترأسها الشيخ المصلح عبد الحميد بن باديس دعوا من خلالها إلى الإصلاح بمعانيه الواسعة بالاعتماد على خطة عمل قائمة على ثلاث محاور رئيسيّة كبرى ذات طبيعة كلية إليها ترجع النقاط الجوهرية الأخرى التي تُعَد من قبيل الفرعيات في مشروع الإصلاح، وهو ما سنحاول أنْ نبيَنه في هذا المقال بتسليط الضوء على الغايات الإصلاحية الكبرى للمبادرين بها من خلال العناصر الآتي ذكرها:

1-/ نشر الوعي الفكري والأخلاقي للإرتقاء بالمجتمع وصيانته من الجوائج الإجتماعية:

إنَ الإصلاح من هذا الجانب الذي أرادت الجمعية من خلاله إعادة توجيه مسيرة المجتمع الجزائري نقيض الوجهة التي وجَهته إليها السلطة الاستعمارية لم يكن محصورا في مجال معين ولم يضع له المصلحون حدود، كما أنَ المنضويين تحت لوائها حاولوا قدر ما أمكن لإقرار تغيير نحو حال أفضل على حسب ما يمتلكونه من إمكانيات مادية وبشرية ولم يتركوا أي وسيلة تساعدهم في تحقيق مراميهم (مدارس، مساجد، نوادي، مقالات، مواعظ تُنشر في صحائف ومجالات إصلاحية) ولم يستثنوا أيضا في تحسيسهم المجتمع الجزائري بضرورة التفكير الجدي في إصلاح حالهم الإجتماعية أي شريحة من شرائحه كونهم كانوا يؤمنون أنَ القضية قضية الجميع فالإصلاح من هذه الجهة كانت إحدى أهَم ركائزه النّهوض بالجزائريين من الناحية الأخلاقيّة بمحاربة الآفات الاجتماعيّة كما تضمّنته المادّة الرّابعة من قانونها الأساسي والتي ذُكر فيها ما يلي: " إنّ القصد من هذه الجمعيّة هو محاربة الآفات الاجتماعيّة كالخمر والميسر والبطالة والفجور وكلّ ما يحرّمه الشّرع وينكره العقل وتحجّره القوانين الجاري العمل بها " (1) ، لكنَ اللافت للإنتباه هو أنَه كان مركزا على مسألتين إجتماعيتين إثنتين تتمثل أولاها في الشباب الذين لمس فيهم علماء الجمعية إنحرافا عريضا في الأخلاق والتقاليد والعادات، وثانيهما مسألة المرآة وما يتعلق بقضاياها وبالخصوص أن في تلك الفترة ظهرت الدعوات الحاملة لمعنى تحريرها على نفس شاكلة المرآة الأوروبية، فبالنسبة للشباب

كان الاهتمام بهم حاجة مُلحّة خاصة وأنَهم أصبحوا يتجاهلون الإلتزام بالمعايير والعمل بأنساق القيّم المُتوارثة نتيجة لمساعي فرنسا التي عمد من هم قيام على شؤونها إلى إيقاعهم في حمأة الفساد فنشروا المعاهر الرسمية في كل المدن تحت حراسة الأمن الرسمي قصد إسقاطهم في مهاوي الرذيلة، كما نشروا أيضا الخمارات التي تُطلق الأفراد من الأخلاق والفضائل، وقد كان التأثير من هذه الجهة تأثيرا مؤسفا إذ أنّ الأهالي خاصة الشباب منهم اعتاد استهلاك الخمور وأصبح مدمنا عليها (2)، حتى أنّنا لو سألنا من عايشوا فترة الاستعمار لبادرونا بالإجابة أنّ كثيرا من الأماكن في الجزائر صُبغت بالصبغة الفرنسية لكثرة وجود دُور المُجون والحانات، وقد شهد بذلك فقيه الحضارة مالك بن نبي حين ذكر في مؤلفه(شاهد على القرن) التالي:" شاع سرب الخمور وبدت بوادر إستغلال الثقة والعوائد المُخالفة لتقاليد البلاد العريقة في الظهور حتى انكفأت تتواري شيئا فشيئا تلك التقاليد"(3)، وهنا كان دور الجمعية التي قال عنها زعيمها الروحي (إبن باديس) التالي: " نقول من الآن أنَ الجمعية لا يجب أنْ لا تكون إلا جمعية هداية وإرشاد لترقية الشعب من الجهل والسقوط الأخلاقي إلى أوَج العلم ومكارم الأخلاق في نطاق دينها وبهداية نبيها الذي بُعث ليُتمم مكارم الأخلاق "(4)، وهي نفس الفكرة كان عليها نائبه الشيخ الإبراهيمي الذي إقتنع بضرورة تقديم الإصلاح التربوي الأخلاقي على التعليمي حيث دعا المُربَين الذين أوكلت لهم مهمة الإشراف على مدارس الجمعية ومساجدها ونواديها وأوصاهم بغرس الأخلاق الحميدة فيهم قائلا: " لا يضيركم ضعف حظكم من العلم إذا وفر حظكم من الأخلاق الفاضلة فإنَ أمتكم في حاجة إلى الأخلاق الفاضلة أشد من حاجتها إلى العلم لأنَها ما سقطت هذه السقطة الشنيعة من نقص في العلم ولكن من نقص في الأخلاق "(5)، لذلك من يُعاود قراءة المقالات والكلام الكثير الذي قيل في الموضوع يكتشف إهتمامهم الكبير بالدعوة إلى إصلاح أخلاق الجزائريين ويُقدَمونها على التعليم، وبغية أنْ يتجاوزوا القول إلى الفعل أسَسوا الكثير من النوادي وهي الوسيلة التي رؤوا بأنَها كفيلة لجذب الشباب

ففي هذا الشأن قال الإبـراهيمي :" والحقيقة أنَ الجمعية لم تجد وسيلة مثلى لتبليغ دعوة الدين والعلم لجمهور عريض من الشباب إلا النوادي"(6) التي يمكن إعتمادها لتعريفهم بمقاصدها حتى يمدوها بالمعونة إذ أن الاجتماعات التي تُعقد فيها جالبةٌ للنفع بقسط وافر لأنَ السواد الأعظم منهم والذي يُعتمد عليه في النهضة كان يقتل الوقت ولا يجد وظائف للعمل فأصبح عُرضة للتحلل من القيَم الأصلية بالإضافة إلى ضعف الهمة وقلة الطموح ، كما أنَه لا يقرأ مجلة ولا يعرف معنى جريدة ولا يعمل فيه شيء مثل حضوره مسامرة أو درسا عاما أو خطبة وإجتماع صغير خيرٌ له من عشرين مقالة رنانة وعشرين قصيدة بليغة(7)، وبالفعل إستطاع القائمون على تلك النوادي الأخذ بأيدي الكثيرين وغرسوا فيهم مكارم الأخلاق ذلك لأنَهم عاملوهم بعقلية الطبيب مع المريض،أما طبيعة النشاطات في هذه النوادي فقد كانت متنوعة تضمنت دروسا للتوعية والتوجيه الوطني وخطب ومحاضرات ومسامرات ومسرحيات وأشعار وأناشيد تساعد من يرتادها في صوغ حياتهم على صورة أفضل يتخلصون فيها من هزيمتهم النفسية وتُوَلد فيهم كذلك الدافعية للعمل على الأخذ بأسباب النهوض حتى يكونوا أكثر إهتماما بمستقبلهم ومستقبل بلادهم، وطبعا لم يكن دور المُصلحين يقتصر فقط على الجزائر وإنما أيضا في عقر دار سلطات الاحتلال إذ بعد الزيارة التي قام بها ابن باديس ومساعدوه في إطار مشاركتهم في المؤتمر الإسلامي(1936) عيّن من يقوم على أحوال الجالية الجزائرية هناك ، وقد شهد بذلك مُفتي الجزائر (الشيخ حماني) بقوله:" لما زار وفد المؤتمر الإسلامي فرنسا وكان من ضمنه ابن باديس وإخوانه من العلماء إلتَف الجزائريون حوله طالبين منه أن يهتّم بهم ، ولما تحقّق من الخطر الذي يُمكن أن يُهدّد الدين والوطن من إنقلاب حالهم وإهمالهم لبّي ندائهم وعيّن للقيام بهذه المُهمّة الفوضيل الورتيلاني (8)، ومن هذه الجهة أيضا كان تأثير الجمعية ملحوظا إذ خرج أولئك من الخمّارات الحقيرة إلى مواطن أكثر طهارة وقد كتب بشأن هذا التحّوُل الجذري لأحوال الجزائريين في فرنسا بفضل جهود الجمعية في جريدة البصائر (السعيد

صالحي) ما يلي :" قبل اليوم كانت الجالية الجزائرية في باريس لا شعور ولا إحساس لها ولا تعرف للدين حقيقة حسبها الفسق والعصّيان واستهلاك الخُمور والقمار أما الآن فقد أحّست وشعرت ونُشر فيها الإصلاح ورُبيّت النفوس وهُذّبت الأخلاق "(9) ، وتمَت إستتارة عقول الآلاف من الجزائريين الذين تُستغل قوة سواعدهم في المناطق الصناعية فتخلصوا من الأدواء الخلقية التي كانت تفتك بهم.

أما المرأة فقد تجلَت دعاوى الجمعية لإصلاح حالها من خلال التأكيد على ضرورة تعليمها وتربيتها دينيا حتى تدرك مكانتها في المجتمع وتشارك مشاركة فعلية في التطورالاجتماعي والثقافي والأخلاقي في وقت كان الاستعمار الفرنسي وأتباعه كلٌ حسب موقعه يعملون في السَر والعلن للإستثمار فيها وجعلها تقدَم كل شيء لمصلحة فرنسا وحدها إما بتصييرها آلة لتربية عبيد وإماء للمستوطنين وإما لتعليمها تعليما فرنسيا سطحيا ممسوخا، ولم تمر سنوات قليلة من العمل الإصلاحي المُضني حتى أصبح الآباء يبعثون بفتياتهم ممن كنَ في سنَ التمدرس إلى المدارس الحرة على إثر تجاوزهم للعقلية المتحجرة وتخليهم عن الذهنية المتخلفة التي كانت سببا في منعهن من متابعة التعليم فأزدادت أعداد الطالبات سنة بعد سنة حتى وصل إلى الثلث من المجموع الكلي مطلع الخمسينات ومنهن من أظهرن التفوق(10)،أما بالنسبة للشابات والنساء اللائي تجاوزن سنَ التمدرس خاصة في المناطق التي إزدادت فيها حدة النشاط التعليمي بنوعيه(المدرسي والمسجدي) كان القائمون على شؤون الجمعية يقدمون لهن دروسا ومواعظ دينية يتعلمن من خلالها الآداب وقواعد التربية الإسلامية ويتم تذكيرهن بنساء السلف، ومع أنَهن لم يقطعن شوطا كبيرا في التعليم وكان زادهن من المعرفة والثقافة قليل إلا أنَهن على الأقل أصبحن يُولين إهتماما بالغا بالعلم والتعليم حيث أصبح طلب العلم ماثلا في سلوكهن بتشجيع أبنائهن على تحصيل ما تيسر من العلوم فالشائع آنذاك عن الأمهات الجزائريات أنَهن يوقظن أبنائهن عند موعد صلاة الفجر ليدرسوا بعدها العربية

والقرآن الكريم في الكتاتيب والمساجد حتى إذا جاء وقت الذهاب إلى المدارس الفرنسية ذهبوا إليها، زيادة على الذي ذكرناه كان المصلحون يُنبَهون المرأة الجزائرية إلى خطورة الدعاوي التغريبية التي كانت تستهدفها والمتضمنة تحريرها بالترويج لفكرة أنَ مهماتها في الحياة لا تقتضي فقط تأدية دورها في المنزل وكفى فقد ردَوا على تلك الدعاوى وبيَنوا أنَ ذلك من شأنه تصديع البيوت والإضرار بالمجتمع ككل وذلك بأسلوب علمي مُقنع يُبيَنون فيه أحكام الشرع وبأنَ هذا النمط من الحياة الذي تتحرر فيه المرأة من كل القيود يُخَل بتوازن المجتمع المسلم .

2-/ محاربة التصوف في وجهه المذموم ومواجهة دعاوى التنصير:

من هذه الجهة كانت غاية الجمعية تحقيق هدفين أساسيين أولهما الحَط من قدر أدعياء التصوف كضرورة إقتضاها طغيان الفساد في العقائد وثانيهما محاربة التنصير ومطالبة فرنسا بفصل الدين عن الدولة، فبالنسبة للنقطة الأولى دعا العاملون تحت لواء الجمعية إلى إحياء الإسلام الصحيح في نفوس الجزائريين حتى تتحرك عقولهم التي تعطلت بفعل الممخرقات التي أدخلها أدعياء التصوف على الدين لتسفيههم لدرجة أصبح معظمهم يتوجسون خيفة من شيوخهم وهم في تعداد الموتى ويظهرون بين أيديهم كالميّت بين يدي الغسَال (11)، أو كمن يقف أمام سيّد آمر أو حاكم مطاع مسلوبي الحرّية سلبهم إيّاها هؤلاء الذين لا ينقطع كلامهم المتضمّن الاِعتقاد دون الاِنتقاد مع أنَهم تجَنوا على الشريعة الإسلامية بممارستهم طقوسا بالية خارجة عن مسالك النزاهة والاِستقامة يُروَج لها لتُؤدي في جو غير مفهوم ويدخل في ذلك الغوث والديوان وبناء القباب على القبور والذبح عندها والاستغاثة بها والتي هي في الأصل ركضٌ بالدين نحو الوجهة الخاطئة، لكن مع بداية النشاط الإصلاحي للمبادرين بالجمعية وضعوا برنامجا أرادوه أنْ يكون عمليا تطبيقيا في إعادة أسلمة الجزائريين فرفعوا شعار خذ من الدين ما صفا ودع ما كدر، ردَا على شعار إعتقد ولا تنتقد الذي كرسته الطرقية عند مريديها وجعلت منه اللبنة الأولى في بناء عقيدة الفرد الجزائري ليعيش

على هامش الحياة و يتعلق بشيوخ الطرق تعلقا أعمى، ولتحقيق هذه الغاية أرسلت الجمعية إلى كل بقاع الجزائر الوعَاظ يجوبون المدن والقرى قصد التعبئة الدينية التي تتم على مستوى المساجد التي عُلَقت عليها الآمال للزيادة من حدَة نشاطهم حيث عملوا على تفعيلها وبنوا العشرات منها بأموال الشعب لتكون على المسار الصحيح الذي وُجدت من أجله ، وزيادة على هذه التعبئة فقد إستغلوا ما أمكن من وسائل أملا منهم في أنْ يبلغ الجزائريون من الفهم والثقافة الإسلامية مبلغا يرفعهم إلى مستوى مقبول وقد وصل الأمر بهم إلى طبع سور من القرآن بالحرف الغليظ وطبع جُمل تتضمن معاني مستقلة في العبادات والعقائد والفرائض(12) كانت موجهة بشكل أخَص لشريحة الكبار ممن كانوا ضحايا لسياسة التجهيل، ولما كان النشء قوام المجتمع رأى المصلحون أنْ يُوجَهوا العناية إليه بشكل مرَكز فأقدموا على بناء جامع لتعليم العلوم الدينية والثقافة العربية الإسلامية فقد ذُكر في المادة الواحدة وثمانون من قانون الجمعية الأساسي التالي:" من غايات الجمعية النبيلة تأسيس كلية دينية عربية بمدينة الجزائر تُدرَس فيها علوم الدين ومقاصد الشريعة وتكون الوسيلة التي تُقرَب العلوم التي يُهاجر أبناء الوطن لتحصيلها في الأقطار الأخرى(13)، وقصد أنْ يكون المصلحون أكثر حضورا في الساحة الدينية بحكم أنَ الجزائريين آنذاك أحوج لمن يُحي فيهم الفقه الصحيح لإمعانهم في الممارسات الدينية دون روَية ولا تفكير حتى إنحرفوا إلى مستوى حقير زاد بشكل بالغ من إستحكام الجهل على نفوسهم أقدموا على تأسيس لجنة للإفتاء تكون مرجعية دينية إجتهادية ،ترأسها إبن باديس وجمعت في عضويتها علماء الجزائر المُتمكنَين في الفقه وعلوم الدين أوكلت لها مهام الرَد على الاستفتاءات الدينية في مختلف نشاطات الحياة المتعلقة بالعبادات والمعاملات والعقائد والأخلاق وغيرها من القضايا، بالإضافة إلى إصدار البيانات الدينية التي كانت كثيرا ما تظهر على صفحات الجرائد التابعة للجمعية وقد كانت هذه الخطوة التي خطط لها القائمون عليها محسُوبة لهم خاصة وأنَه كثرت الفتاوى غير الرسمية التي تصدر عن شخصيات دينية دخيلة غير

مُؤهلة تعمل تحت إمرة ولمصلحة فرنسا، وما يدل قطعا على الجهود المضنية لأعضاء الجمعية في الإصلاح من جانبه الديني هو أنَهم تواقين إلى تبديل حال الجزائريين وتحسين شأن حياتهم الدينية وهذا تقرير من الحقيقة لنفسها وليس مدحا ولا إشادة إذ كانوا حقيقة نماذج يُحتذي بها في التضحية بالراحة وإفناء الصحة في الذود عن الشريعة الإسلامية وإلاَ ما معنى أنْ ينشروا الإصلاح داخل السجون والمعتقلات التي حوَلوها إلى مدارس تهذيبية تثقيفية تحفظ في المسجونين روحهم الإسلامية الوطنية وتدفع عنهم روح الانهزامية(14)، وقد كانت نتيجة كل تلك الجهود التي ذكرناها عودة المجتمع إلى الإعتقاد بالله من دون وساطة الشيوخ ومن دون ذبح الذبائح عند القبور وأعيدت أيضا الأسماء إلى مُسمياتها ترتبط فيها الأوصاف بالموضوعات، كما حدث إنكماشٌ كبيرٌ للطرقية في الجزائر لم تعهده من قبل إذ بعد ستة سنوات فقط من بداية النشاط الإصلاحي تقلَص عدد الأتباع إلى ما يقارب النصف (15)، وإستمر تناقصهم بعد ذلك الشيء الذي أرَق شيوخها ودفعهم إلى الإستعانة بالإدارة التي أصبحت وحدها كفيلة بوقف النشاط الإصلاحي، والجدير بالذكر أنَ هذا النشاط وصل إلى عقر دارالفرنسيين حيث إستطاع المصلحون بعد مضي سنوات فقط نقل الإصلاح الديني إلى فرنسا التي إمتدت إليها بعض من فروع الطرق الصوفية على غرار الطريقة العلوية (16)، فكما هو معروف كانت فرنسا حينذاك قبلة للآلاف من الجزائريين الذين إغتربوا فيها طلبا للعمل بمصانعها التي كانت تحتاج إلى يد عاملة كثيرة، وبالرغم من الظروف الصعبة التي كانوا يعيشونها أقدم أغلبهم على إصطحاب زوجاتهم وأبنائهم فأختلطوا بالفرنسيين وداخلوهم ثقافيا وكان من المحتمل أنْ يُناهز عدد أطفالهم في تلك الفترة ثلاثين ألفا في باريس وضاحيتها(17)، فما بالنا بباقي المدن الصناعية الأخرى وقد كانت الحياة الدينية لهؤلاء شبيهة بمن هم داخل البلاد حيث كانوا يُعانون عجزا وقصورا في الفهم الصحيح للدين ولعله ليس من المبالغة القول أنَ حالهم أكثر سوءا جراء معيشتهم في بلاد الإسلام عنها غريب، وهنا تفطَن طاقم الجمعية وخططوا لإخراج

الإصلاح من نطاقه الوطني وأرسل رئيسها إبن باديس إلى هؤلاء طائفة من خيرة طُلابه وأعوانه فأسَسوا مدارس ونوادي لهم في باريس وليون وسانت إتيان وليل وغيرها من المدن الصناعية، ولقد لقي الإصلاح تجاوبا كبيرا ربَما أكثر من الذي كان منتظرا إذ أنَ تلك الأسر أبدت إستعدادا لدفع كل ما تستطيع لكل من يريد القيام بتوجيه أبنائها (18) .

هذا بالنسبة للهدف الأول الذي تضمن محاربة العدو الداخلي أما العدو الوافد من الخارج (فرنسا) التي باشرت بعد فترة وجيزة من الاحتلال العمل في إحلال الدين المسيحي مكان الإسلام مستعينة بكل الطاقات والإمكانات الجبارة للجمعيات التبشيرية كان نشاطهم أقل درجة لأنَ الإصلاحيين كانوا يعوون جيدا أنَ سياسة التنصير لم تلق إستجابة كبيرة لأنَ الجزائريين جميعا ورثوا شخصيتهم الإسلامية بالفطرة حتى من كانوا في سنَ الطفولة آنذاك يفهمون مبادئ العقيدة الأساسية وسنضرب مثاليين للدلالة على ذلك الأوَل ما ذكرته إحدى المَدرسات التي عملت في ثلاثينيات القرن الماضي في بلدية نائية ببلاد القبائل حيث قدَمت درسا حول المسيحية فأخذت تَردَد عبارات(الأب– الإبن– الروح القدس) ولاحظت أنَها كلما ذكرت كلمة إبن الله إنفجر الصبيان بالضحك فأستغربت ودنت من طفلة صغيرة لتسألها عن سبب ضحك الجميع فردت عليها قائلة أيُعقل يا سيدتي أنْ يكون لله أبناء ؟ تقول المدَرسة أيقنت حينئذ أنَه من المستحيل أنْ يتحول هذا الشعب عن دينه(19)،أما الثاني فهي تلك التجربة التي قامت بها الإدارة حين إنتقت مجموعة من الفتيات وألبستهن اللّباس الفرنسي ولقنتهّن الثقافة الفرنسية وعلمتهّن لغتها فأصبحن كالفرنسيات، وبعد عشرة سنوات من الجُهود هُيئت لهن حفلة تخرج دُعي إليها كبار الساسة وضباط العسكر ولما ابتدأت الحفلة فوجئ الجميع بفتيات يدخلن بلباسهن الإسلامي الجزائري، فثارت الصحف وضجّ الإعلام وتساءل الكُّل ماذا فعلت فرنسا بعد ما يربو عن القرن والربع من الزمن فأجاب (لاكوست) المُكلّف بإدارة الجزائر ماذا نفعل إنْ كان القرءان أقوي من فرنسا ؟(20)، فمثل هذه الأشياء هي التي جعلت علماء الجمعية يتوجهون

بشكل مُركَز إلى الحركة المرابطية على حساب فرنسا التي تعاملوا معها بأسلوب ناعم ومراوغ بعيد عن الاستفزاز لئَلا أقدمت على تجميدها كما كانت تفعل مع كل من يُحتمل أنْ يكون قائدا للتغيير، لكن هذا لا يعني أنَهم أداروا ظهورهم لمخططات الفرنسيين الذين حاولوا منذ أنْ وطئت أقدامهم الجزائر قطع صلة الشعب بالإسلام بل تكفلوا بإزالة الضرر عن حياته الدينية من خلال دروس الوعظ التي حثَوا فيها على الاستمساك بالشريعة الإسلامية بغية إفشال المخطط التنصيري بالبلاد فتمَ إستصدار فتوى توجهت بها الجمعية إلى الأمة هزت كيان الجميع تضمنت تحريم التجنيس وإعتباره ردَةٌ وكفر إذ بعد أنْ كثُر السائلون عن حكمه وتوالت رسائلهم على لجنة الفتوى لجمعية العلماء كُلف رئيسها عبد الحميد ابن باديس بالرّد فذكر أنّ التجنيس بجنسية غير إسلامية يقتضي رفض أحكام الشريعة ومن رفض حكما واحدا من أحكام الإسلام عُدّ مرتّدا عنه بالإجماع(21) كما طالبت أيضا بشكل مَستمر الكَف عن كل دعاية للتنصير وبالخصوص أنَه كان كثيرا ما يعقد المُتجنسون أنذاك إجتماعات قصد الإكثار من أعدادهم ومطالبة الحكومة بمزايا أخرى كوسيلة من وسائل الإستمالة ففي هذا الشأن تعالت أصوات المصلحين المُستنكرة لهذه الإجتماعات الدورية إذ جاء في إحدى أعداد جريدة البصائر الآتي:" فنحن بلسان الإسلام نحتّج على هذا من هؤلاء السادة وننصح لهم بالكّف عن كل دعاية في هذا المعني والتّفرُغ لإستحصال جميع حقوق الجنسية التي إعتنقوها وارتكبوا ما ارتكبوا لأجل نيلها "(22)، ثُمَ إنَه لما كانت كل المؤسسات الدينية وبالخصوص المساجد تحت المراقبة المُشددة طالبت الجمعية بفصل الدين عن الدولة لتكون الأمة حرة في دينها مطلقة التصرف في مساجدها وأوقافها وشعائر دينها وهو المطلب الذي يرى فيه بعضٌ من أصحاب الفكر الخافت خروجٌ للمصلحين عن جيد السَكة لذلك بيَن الشيخ الإبراهيمي شروط هذا الفصل قائـلا:" الأمة لا ترضى إلا بالفصل الحقيقي على الوجه الذي سطَره العلماء الأحرار والمسلمون الأبرار"(23) حقيقته عزلٌ للشؤون الدينية عن الإدارة الفرنسية التي سعت إلى تغييب الإسلام عن

كل المجالات من تعليم وقضاء وإجتماع وإقتصاد وسلوك وأخلاق، وكذلك منعٌ للفرنسيين من التدخل في شؤون الدين الإسلامي لا ظاهرا ولا باطنا لا في أصوله ولا في فروعه(24)، فهذا الفصل ليس إرتماءا في براكين إيديولوجية العلمانية كما يعتقده ذوي الفكر السطحي لأنَه لو كان الأمر كذلك لأستجابت الإدارة لهذا المطلب دون تفكير ولا تأخير، وبهذا كله كانت الجمعية ترْقُب أعداء الإسلام وترفع الخطر الذي يُحدّق به سواءا كان وافدا من الداخل أو الخارج وتنصح أفراد المُجتمع بالبقاء بعيدا عن مُخططات الحكومة التي تستهدف عقيدتهم وتُوقعهم هُم كأفراد في أمواج من الأفكار التغريبية التي لا ثمرة لها إلا التّيه الحضاري.

3-/ إعادة ترسيم اللغة العربية في الجزائر :

إنطلاقا من فكرة أنَ اللغة وعاءٌ يجتمع فيه كل مُتكون من حضارة وثقافة وديانة وتقاليد ليس من الغريب بعد نجاح فرنسا في فرض السيطرة على الجزائر بالعنف أنْ يُفكَر خبراؤها الاستعماريون في طريقة أخرى تساعدهم على تأصيل وجودهم بالمنطقة عن طريق الإهتداء إلى إستراتيجية تقضي بمحو الشخصية الجزائرية الأصيلة من خلال فرنسة الألسنة والعقول وقد جعلوها أولى الأولويات التي ينبغي العمل الجاد لتحقيقها إذ جاء في إحدى القرارات التي أصدرتها الإدارة ما يلي:" إنّ من أهّم الأمور التي ينبغي أنْ نعتني بها قبل كل شيء هو جعل اللغة الفرنسية مكان العربية دارجة و وعامة بين الأهالي الذين عزمنا على استمالتهم إلينا وإدماجهم فينا وجعلهم فرنسيين"(25)،وبالفعل تمَ الشروع في تطبيقها على أرض الواقع بتدمير الكثير من المدارس ومراكز الإشعاع العلمية العربية وتحويل الباقي إلى معاهد ومدارس للتعليم باللغة الفرنسية فقط، وبطبيعة الحال جريمة فرنسا الحضارية التي فكَرت من خلالها تغييب لغة الضاد عن الفضاء الثقافي في الجزائر حديثٌ مُتفرَعٌ و ليس من المبالغة القول أنَه لا توجد لغة من لغات العالم في العصرا لحديث تعرضت للإستباحة مثلما تعرضت له هذه اللغة كيف لا؟ وقد أصدرت الحكومة في 29 ديسمبر 1904م مرسوما يقضي

بعدم السماح للمعلمين المسلمين إدارة مكاتب لتعليم العربية بدون رخصة تُقدَم قبلها ضمانات أهمَها إستبعاد دراسة تاريخ الجزائر والأدب العربي بجميع فنونه(26)، وقصد التخفيف من شدة المأساة الثقافية التي كان يعيشها الجزائريون وهم يستشعرون إختفاء لغتهم الأم من جميع المجالات غيَرت الحكومة من أسلوبها في التضييق عليها إذ أصبحت أكثرُ لينا ولكن أعمق تأثيرا حيث أضحت الدعوة للتخلي عنها يتَم بترسيخ فكرة أنَها لغةٌ ميتةٌ يقتضي العصر الحديث توقيف العمل بها، وقد توجهت بها بشكل مرَكز إلى التلاميذ الذين يطلبون المعرفة على مستوى مؤسساتها التعليمية إذ كلما ذكرها القائمون على شؤونها إلاَ وإقترن ذكرهم لها بصفات الذَم ونعوت السوء وقالوا عنها أنَها فقيرة في الاصطلاحات الفنيَة ومعقدة العبارات ،كما روجوا لأغلوطة ترددت على الألسن مهدوا بها إلى وصم العربي بأنَه بليدُ الفكر جامدُ القريحة سطحيُ التفكير مسدُود الشهيّة العلمية(27)، ضاربين عرض الحائط حقيقة لا يُمكن التعامي عنها وهي أنَ هذه اللغة التي يُحاربونها في موطنها كانت إلى عهد قريب تتبوأ مكانة مرموقة بين لغات العالم وتُمثَل لغة الحضارة والثقافة.

بقي الوضع اللغوي في الجزائر على حاله لم تجد فيه لغة الضاد من ناصر سوى الزوايا والمساجد حتى بداية بوادر النهضة في العشرينيات من القرن الماضي أين بدأ الجزائريون ولأوّل مرة على مستوى النوادي والجمعيات الإصلاحية يُحاولون كتابة تاريخ أجدادهم باللغة الوطنية ويبعثون الحياة في وثائق مُغطاة بالغُبار، ثُم بالموازاة مع تأسيس الجمعية رفع طاقمها شعار(الجزائر وطننا،الإسلام ديننا،العربية لغتنا) ربطوا فيه بين الدين والجنس وكأنّ لسان حالهم يقول لا جزائر من دون اللغة العربية ولا تاريخ ولا ذاكرة لها إلا من خلال هذه اللغة، فهي سجَل ماضيها وحاضرها ، والشاهد الذي يدل على الاهتمام البليغ الذي أولاه رجال الجمعية للإصلاح من جانبه اللغوي والذي جعلوه مقرونا بالإصلاح الديني ومن أشرف الغايات التي أملوا تحقيقها هو ما جاء في التصريح الذي أدلى به الشيخ الإبراهيمي الذي قال في خطاب رسمي له أمام الجمعية العامة سنة 1933م

ما يلي : " إنَ جمعيتكم هذه أسست لغايتين شريفتين لهما في قلب كل عربي مسلم بهذا الوطن مكانة لا تُساويها مكانة وهما إحياء الدين الإسلامي وإحياء مجد اللغة العربية "(28)، لذلك نجد إبن باديس والعلماء الذين إلتفوا حوله وعاهدوه على السير قُدما في طريق النهضة منذ البدايات الأولى للتأسيس يعملون على إعداد البرنامج الذي سيتم إعتماده والخطة التي سيسلكونها حتى تتم إعادتها إلى مكانة الريادة التي سبق وأنْ تبوآتها، وبشكل فعلي أظهر هؤلاء حماسا مُتقدا وعزيمة جبارة لبلوغ غاياتهم متجاهلين غطرسة فرنسا ، وعلى صلابة إرادتهم وزيادة وعيهم بضرورة إحيائها في بلادها وبين أهلها إزدادت قدراتهم بشكل مُطرد وتكسَرجدار الصمت و إختفت نزعة الخنوع فقد قال إبن باديس في هذا الشأن :" إنَنا نعلن لخصوم الإسلام والعربية أنَنا عقدنا العزم على المقاومة المشروعة في تعليم ديننا ولغتنا رغم كل ما يُصيبنا، ولن يصدنا عن ذلك شيء فنكون قد شاركنا في قتلهما بأيدينا وإنَنا على يقين من أنَ العاقبة وإنْ طال البلاء لنا وأنَ النصر سيكون حليفنا "(29)، ويقول أيضا في نفس السياق تشجيعا منه علماء الجزائر على العمل لترقية اللغة العربية ما يأتي :" إنَي أعاهدكم على أنني سأقضي بياضي على العربية كما قضيت سوادي عليها وإنني سأقصر حياتي على الإسلام والقرآن ولغة الإسلام ولغة القرآن ، هذا عهدي لكم ولا أطلب إلا شيئا واحدا وهو أن تموتوا على الإسلام والقرآن ولغة الإسلام والقرآن" (30)، وقد تجَلت عزيمتهم هذه من خلال مواقفهم الثابتة فقد كان جميعهم يتنقلون في كل ربوع الوطن متحملين المحن لأجل أنْ يُشيَدوا مدارس للأطفال يتعلمون فيها لغتهم الأصيلة يكون القائمون عليها أحرارا في تسطير برامجها، وقد شُيَد أكثريتها على الطراز الإسلامي وبطريقة متقنة عصرية فيها كل ما تتطلبه المدرسة الحديثة وعلى قلَة الإمكانيات وشُحَها إستطاعوا أن يبنوا أزيد من 150مدرسة يقوم على تأطيرها 700من المؤطرين الأكفاء ذوي الثقافة العربية الإسلامية (31) يعملون فيها بوسائل بسيطة على تكوين أجيال جديدة لها معرفةٌ وإطلاعٌ على اللغة العربية، ومن بعد إنتهاء التكوين فيها يتم توجيه الراغبين

في إستكمال دراساتهم إلى الجامع الأخضر بقسنطينة الذي تمَ بنائه ليكون بمثابة معهد من المستوى العالي وصلت طاقة إستيعابه إلى ما يقرب الألف طالب يأتونه من كل جهة بالبلد، ومع تخرجهم منه أظهر الكثيرون رغبتهم في إكمال المسير لطلب العلم فتحتم على طاقم الجمعية الإستنجاد بجوامع ومعاهد الدول الشقيقة حتى تُساعدهم في تكوين أساتذة ومؤطرين يحملون المشعل، فتمَ إيفاد الكثير من البعثات تتكون من عشرات بل مئات الطلبة إلى كبريات المعاهد العربية آنذاك وبالرغم من ضيق الحال وشح الإمكانات إلا أنَ عددهم مع مطلع الخمسينات تجاوز الألف على حسب الإحصائيات التي قدَمها المؤرخ الفرنسي (شارل روبير أجرون) الذي ذكر أنَه في سنة 1954م تمَ إيفاد 900 طالب إلى الزيتونة و200 طالب إلى القرويين و300 طالب إلى جامع الأزهر بالقاهرة(32)، و زيادة على المساجد والمدارس الحرة والبعثات الطلابية إستعان كذلك المصلحون بالجرائد والمجلات والمناشير لتعبئة الجماهير وتوعيتها بمأساة اللغة العربية ووضعها المتردي الذي يتوجب تغييره من خلال المشاركة الأكيدة للجميع في المعركة الثقافية التي إحتدمت بينهم وبين دعاة الفرنسة ، فقد جُعلت تلك الجرائد التي أستصدرت خاصة التي كُتبت لها الاستمرارية أدوات لنشر كل ما من شأنه تمجيد اللغة العربية فكانت بحق زادا للمثقفين والمتعلمين خاصة وأنَ مواضيعها متعددة وتحوي مقالات أدبية وتاريخية وفكرية ودينية مكتوبة بلغة بليغة فصيحة بديعة تُمكَن من يقرأها بشكل دائم من إكتساب الملكة اللغوية فتتولد عنده المقدرة على المحاكاة ويسهل عليه بمرور الوقت إستخدامها السليم في حاجاته وأغراضه وأفكاره، وما يضعنا أيضا أمام الصورة للوقوف على حقيقة نشاط رجال الجمعية الدءوب لبعث اللغة العربية من جديد في الجزائر تقديمهم للمكتبة الجزائرية بصفة خاصة والعربية الإسلامية بصفة عامة الكثيرمن المؤلفات في غاية من الأهمية ولو أنَ أكثريتها تناولت موضوع الإصلاح أو إحدى جوانبه ، وبطبيعة الحال يضيق المقام ها هنا لذكر تلك الأعمال النثرية والشعرية والتي ظهرت في صور كتب ورسائل وروايات وقصائد غزيرة ذات

مواضيع متعددة (الإجتماع، الدين،الحكمة ،الأخلاق، الهوية الأصالة،حب الوطن ...) كلها أسهمت في حفظ ملامح العروبة في الجزائر وزوَدتها بتاريخ وطني بلغتها تحت رعايتهم ،بالإضافة إلى كل ما تمَت الإشارة إليه طالبت جمعية العلماء بشكل مستمر بترسيم اللغة العربية ، فقد جاء في مطالب الجمعية بهذا الصدد وبالتحديد في النقطة الأولى من اللائحة التي قدَموها في هذا مؤتمر1936م ما يأتي:" سيُعترف باللغة العربية لغة رسمية على غرار الفرنسية وستُعامل الصحافة العربية كما الصحافة الفرنسية، وسيستفيد أيضا تعليم اللغة العربية في المؤسسات الخاصة بنفس الحرية التي تتمتع بها اللـغة الفرنسية "(33)، وقد أولت الجمعية هذا المطلب إهتماما بالغا إذ كان المبادرون بها على حسب الأحداث يتحينون الفُرص لمراسلة القائمين على شؤون الإدارة الإستعمارية لحملهم على إلغاء القرارات العسفية التي ظلت تعرقل التعليم العربي وإستبدالها بقانون يُساعد على إيجاد الظروف الملائمة لنشر اللغة العربية بكل حرية.

بعد عشريتين ونيف من تأسيس الجمعية إستطاع أعضائها القاعديون أن يوقظوا حسَ القاعدة الجماهيرية للشعب ويُحمَسوه للإصطلاح مع ذاته الثقافية والعودة إلى لغته الأصيلة التي أصبحت بحاجة إلى من يبعثها من جديد ويُعيد لها مجدها وما كانت فيه من حظوة فيما مضى قبل أنْ تُدخلها فرنسا نفقها المظلم وتحيك لها الدسائس بغية أن تتأخر وتُهمش وتترك المجال واسعا أمام اللغةالدخيلة (الفرنسية) لتجعل من المجتمع مسخا متحولا عن هويته الأصلية ، وطبعا كل هذا تحت ظروف تتسم بالقسوة والصعوبة يطغى عليها المُثبَطون للعزائم على المتفائلون إذ أنَ الكثيرون حتى ممن يُحسبون من النخبة كانوا ينظرون إلى مشروع الجمعية على أنَه مشروعٌ خاسرٌ لا محالة لكن ذلك لم يزد أعضائها إلا عزيمة وإصرار ولم يكترثوا بما سينالونه من الأتعاب فقد كانوا يعلمون سلفا أنَ المشاريع مهما اختلفت مراميها وتباينت مقاصدها فإنَ أساس نجاحها الأول صدق العزيمة والإخلاص ، فكانت النتيجة أنْ خفَت وطأة الفرنسة اللغوية على الجزائريين وإستقامت ألسنة النشء

ممن كانوا في سن التمدرس حتى أصبحوا يتحدثون بالعربية بفصاحة، وزيادة على هذا فإن الجمعية التي كانت عنوانا للمقاومة الثقافية بمجابهتها إستراتيجية الفرنسة اللغوية رغم محدودية الإمكانات وقلتها إستطاعت أنْ تدفع عملية التعليم العربي في الجزائر حتى بعد الاستقلال فإليها يرجع الفضل في تكوين النخبة المُفكَرة من المعربين وإليها يرجع الفضل في إعادة الاعتبار إلى اللغة العربية (34).

خاتمة:

من منطلق ما تمَ عرضه لا يسع المُنصف الذي يتحدث عن الجمعية ومن بادر بها إلا الحكم عليهم بالثناء والتقدير لقاء ما بذلوه في إقرار تحرر شامل يساعد على كسب رهان الهوية الوطنية فجرأتهم العميقة كانت بحق تجسيدا لمعنى الإخلاص في خدمة البلاد والعباد زمن كانت الإدارة الاستعمارية تمارس سياسات السحق والمحق بأعلى الوتائر وتُحاصر وتهدد بالسجن والنفي والإغتيال والتعذيب كل من تُسوَل له نفسه الوقوف في وجهها والكشف عن مكائدها التي كانت تتمنى عن طريقها تشكيل المجتمع الجزائري على الطراز الفرنسي الغربي، و لعله ليس من المبالغة القول أنَ لو لا المشروع الإصلاحي للجمعية الذي وقفنا على غاياته الكبرى لكان مصير معالم الشخصية الوطنية اسودا لا يُجدي معه شيء، فقد ساهم المبادرون بها بقسط وافر في بقاء الشعب الجزائري موصولا مع مورثه الثقافي الذي كان قاب قوسين أو أدنى من أنْ يدخل كهف النسيان في تلك الحقبة المأزومة.

الـهوامـش:

1) مرَاد علي، **الحركة الإصلاحية في الجزائر**، دار الحكمة، الجزائر، 2007م، ص70.

2) E – A Duchesne , **La prostitution dans la ville d'Alger depuis la conquête** ,l'libraire de l'académie impériale de médecine , Paris 1953 ,p35-81 .

3) بن نبي مالك، **مذكرات شاهد على القرن**، دار الفكر، سوريا، ط2، 1984م، ص 17.

4) بن باديس عبد الحميد، **آثار عبد الحميد بن باديس**، مطبوعات وزارة ش د، الجزائر، ج4، ط1، 1984م، ص 55.

5) الإبراهيمي محمد البشير، **عيون البصائر**، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ج2، ط1، 1997م، ص 296.

6) نفس المرجع، ج1، ص 27.

7) بن باديس عبد الحميد، مرجع سبق ذكره، ج4، ص 224.

8) حماني أحمد، **شهداء علماء معهد ابن باديس**، قصر الكتاب، الجزائر، 2004م، ص 88.

9) فضلاء محمد الحسن، **مجموعة جريدة البصائر– لسان حال ج ع م ج** –، دار البعث، الجزائر، ج1، 1983م، ص284.

10) محمد خير الدين، **مذكرات محمد خير الدين**، مطبعة دحلب ، الجزائر ، ج1، 1985م ، ص142.

11) الفكون عبد الكريم، **منشور الهداية في كشف حال من ادّعى العلم والولاية**، تحقيق أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت ط1، 1987م، ص 164.

12) زعيمي مراد، **مؤسسات التنشئة الاجتماعية** ، دار قرطبة، الجزائر ، ط1، 2007م، ص 109

13) أنظر القانون الأساسي الخاص بالجمعية.

14) حماني أحمد ، مرجع سبق ذكره ، ص103.

15) مرَاد علي ، مرجع سبق ذكره، ص 67.

16) الخطيب أحمد ، **جمعية العلماء وأثرها الإصلاحي في الجزائر**، المؤسسة الوطنية للكتاب، ، الجزائر 1985م ، ص59.

17) بن نبي مالك ، **بين الرشاد والتيه** ، دار الفكر، لبنان ، ط2، 2002م ، ص 59.

18) نفس المرجع، ص69.

19) بن نعمان أحمد ،" **الحصانة الدينية للشخصية الجزائرية** " ، مجلة الأصالة ، مطبعة البعث، الجزائر، العدد 85-86 ، السنة التاسعة ، 1980م ، ص 82.

20) الساحلي محمد العزيز ، **جمعية العلماء من خلال فكر زعماء الإصلاح** ،، كومبيوتايب، بيروت، 1995م، ص 60.

21) عبد الحميد ابن باديس ، مرجع سبق ذكره ، ج3، ، ص 308.

22) نفس المرجع، ص 264.

23) الإبراهيمي محمد البشير ، **أثار البشير الإبراهيمي** ، م و ن ت ،الجزائر ،ج1978،1م، ص102.

24) الخطيب أحمد ، مرجع سبق ذكره ، ص 193.

25) بن نعمان أحمد ، مرجع سبق ذكره ، ص 76.

26) الجندي أنور ، **الفكر والثقافة في شمال افريقيا** ، الدارالقومية العربية، القاهرة، 1985م، ص 113.

27) الإبراهيمي محمد البشير، مرجع سبق ذكره،ج1، ص262.

28) نفس المرجع ، ج3، ص 133

29) الميلي محمد ، **إبن باديس وعروبة الجزائر** ، ش و ن ت ،الجزائر ، ط2، 1980م ، ص 151.

30)عبد الحميد إبن باديس ، مرجع سبق ذكره ، ج6، ص 366.

31) المدني أحمد توفيق ، **هذه هي الجزائر** ، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ، دت ، ص 112.

32)Charle Robert Agron , **histoire de l Algérie contemporaine** , tome 3, puf , Paris ,1979 , p537.

33) مرَاد علي ، مرجع سبق ذكره ، ص 503.

34) سلامة عبد الرحمان ، **التعريب في الجزائر ماضيا وحاضرا ومستقبلا** ، وزارة الإرشاد القومي، دمشق، 1976م، ص 15.